قصة نفق

فريد محمد معوض - مصر

قصة قصيرة

لم أكن إلا لخدمة البشر. كان النفق يمتد من تحت الأرض فتجري فيه العربات لتصل إلى مستقرها آمنة فأمنع الزحام فوق الأرض.. كنت أنساب أحيانا فأربط بلدا ببلد، وعالما بعالم.. لم أكن أنا إلا الأرض يأخذون ترابي يزيحونه بعيدا فأمتد رويدا رويدا، أنساب في جوف الأرض، كل مكان في الأرض يفرح حين يصير نفقا..

لكنني ويا أسفي.. قد يتمنى أي مكان في الأرض أن يصير نفقا.. إلا أنا.. أنا الأرض التي انتصب فوقها الأقصى.. الأقصى يا رفاقي.. أولى القبلتين وثالث الحرمين فكيف أدخل.. كيف أتوغل تحت قواعده.. ارتعشت ذراتي واهتز كياني الممتد.. من هم الذين سيفعلون ذلك.. صرخت.. إياكم أن تمسوا ترابي.. إياكم أن تقتربوا مني.. لكنهم راحوا يحفرون، وتصدى لهم الأبطال.. أبطال أنبتتهم الأرض، مسلمون مثلكم يا رفاق.. استثمروا أحجاري، أخذوها، قذفوا بها في وجوه الذين يحفرون.. ولماذا يحفرون؟ آه يا رفاق.. هم دائما يحفرون.. يزعمون أنهم يبحثون عن تاريخ لهم ضاع تحت قواعد الأقصى ليعلنوا للعالم كله أن لهم تاريخا.. ولا شيء على الأرض إلا هم ولأنهم لن يجدوا شيئا فسيظلون يحفرون.. يريدون أن يزعزعوا قواعد الأقصى.. المهم يا رفاق.. لقد أوقفتهم الأحجار عن الحفر.. أسكتتهم أياما، شهورا، لكنهم عادوا بالليل، يأتون إليّ، يأخذون ترابي، يدفعونه بعيدا، يريدونني أنا الأرض نفقا.. أصير نفقا وأين؟!.. تحت الأقصى.. آه يا لفظاظتي.. وأن أتوغل تحت أركان بيت صلى فيه كل الأنبياء خلف رسول الله محمد بن عبد الله.. ما زال منظر البراق ماثلا أمامي وهو ينتظر أمام المسجد حتى يخرج الرسول من الصلاة..

آه يا رفاقي.. كل ليلة يتسللون ليواصلوا الحفر.. كل ليلة أمتد.. أتوجع، هل سأصبح نفقا بحق.. إذن أسوأ نفق.. على وجه الأرض..

وتمتد المعارك بين أعداء المسجد وبين الأبطال الصغار. ويوما بعد يوم أمتد أصير كالثعبان البغيض..

صرت نفقا بحق، يا لخيبتي.. أنا المزعج لجلال البيت الآمن.. أنا.. أنا أسوأ نفق على وجه الأرض يا لتعاستي.. يا لتعاستي.. لكن هل يفتتحونني؟.. لا.. لا.. لن يكون.. هكذا كنت أظن يا رفاق..

فأنا أعرف أن افتتاحي يعني افتتاح الموت لأعداء الله.. يعني انتفاضة جديدة تزلزل أعداء الله.. يعني الدخول في نفق مظلم.. آه.. ما الذي يذكرني بكلمة نفق.. وكانت الطامة الكبرى حين شرعوا في افتتاحي.. فهب كل شيء في القدس يعلن الغضب، الأطفال والنساء والرجال.. والمآذن في الخليل، وأشجار الزيتون، الأبطال راحوا يأخذون الأحجار ويقذفونها.. يتساقطون شهداء، وتظل أيديهم قابضة على أحجار أخرى..

وأنا الذي تحت الأرض أعلن لكم.. للشهداء.. للمسلمين في كافة البقاع.. أنني لن أسكت.. أنا أسوأ نفق، سأصير أحسن نفق بإذن الله.. سوف ترعبون أعداء الله.. سوف يلهثون أمامكم كالنعاج.. لن يجدوا مكانا يختبئون فيه غيري، وسيهرعون.. و سأمتلئ بأعداء الله وسوف تسدون فتحتي.. وسوف أضم أجسادهم أعتصرها.. سوف أعيدها إلى حيث أراد الله ترابا تحت أركان الأقصى ليستحيلوا إلى ذرات وليبقى الأقصى شامخا.. شامخا يارفاق، وساعتها سأكون أحسن نفق. انتظروا يا رفاق.. قدوم أحسن نفق.. انتظروا بلا قلق.. وحتى يحدث ذلك فأنا في غاية القلق!..